مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (5)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (5) 2017

بين ألكسندر فيسيلوفسكي وفيكتور جيرمونسكي

د. عيد محمود*

(تاريخ الإيداع 8 / 8 / 2017. قبل للنشر في 27 / 8 / 2017)

□ ملخّص □

تركيز الباحثين والنقاد المقارنين، نظرياً وتطبيقياً . على ما فرزه الدرس الفرنسي المقارن أمر لا يحتاج إلى كبير عناء لإثباته، أما عدم تركيزهم على ما قدمه غيرهم من المنظّرين خارج فرنسا، لابل عدد لا بأس به داخلها، وخاصة ما قدمه المفكرون والنقاد الألمان والروس، أمر يحتاج إلى وقفة وعناية.

ومن هذا الباب، يحاول البحث استكمال فتح بعض النوافذ المهملة –بقصد أو من دون قصد– استقراءً وتدقيقاً، ومناقشة واستنباطاً، من خلال الوقوف على ما قدمه كل من ألكسندر فيسيلوفسكي وفيكتور جيرمونسكي من أفكار وآراء، اتفقا في بعضها وتمايزا في بعضها الآخر . أنتجت ما بات يعرف بالاتجاه الروسي المقارن. ليشكل هذا كله هدف البحث وغايته، في محاولة لمسح الغبار عن جانب مهم قد يكون بديلاً منهجياً لاتجاهات أخرى.

الكلمات المفتاحية: الدراسة الأدبية المقارنة، نوافذ، استقراء، استنباط، اتفاق، تمايز، غاية، بديل منهجي.

* أستاذ مساعد –قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين ، سورية، اللاذقية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (5)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (5) 2017

Between Vycyleviski and Germonski

Dr. Eid mahmoud*

(Received 8 / 8 / 2017. Accepted 27 / 8 / 2017)

□ ABSTRACT □

Researchers and critics focus on the French comparative research, which is clear and requires no proof. But perhaps we need to be steadfast by the Russian thinkers and critics.

The research attempts to complete the opening of some neglected windows with the intent or purpose of extrapolating and checking the situation that we are repressing through the prelude to the confidence of the ideas and opinions that produced what is known as the Russian comparative trend.

Keywords: Comparative literary study, extrapolation, agreement, systematic alternative

* **Associate professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Latakia, Syria.**

مقدّمة:

إن الباحثين والمنظرين والدارسين المقارنين في النصف الثاني من القرن الماضي، اتجهوا صوب الاتجاه الفرنسي أولاً، والأمريكي ثانياً، في أعمالهم النظرية والتطبيقية، متجاوزين إلى حدٍ كبير الاتجاه الروسي، الذي بدا في بعض جوانبه استكمالاً لما قدمه الألمان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر، وهذا ما دفعني إلى الاهتمام بما قدمه الباحثون السوفييت والروس من جهودٍ في الدرس الأدبي المقارن من جهة، وجعلني افتش محللاً ما قدمته أقلام هؤلاء المنظرين والنقاد، ومقارناً بين ما طرحوه وما طرحه الناقد الفرنسي (بول فان تيجم)، بقصد إغناء زاد المهتمين بهذا المجال، إذا ما أُخذ في الحسبان أن القارئ العربي لا يجد مقابل ما يجده في الاتجاه الفرنسي في هذا المجال إلا بضعة أبحاثٍ تأليفاً أو ترجمةً.

أهمية البحث وأهدافه:

انطلاقاً من حرص معرفيٍ أولاً، ومنهجي ثانياً، تم اختيار عنوان هذا البحث سعياً للاعتراف بما قدمه السوفييت والروس عموماً، وأ.فيسيلوفسكي، وف.جيرمونسكي خصوصاً في مجال الدرس الأدبي المقارن، وتوضيح الجوانب التي اختلفا فيها، والجوانب التي اختلف فيها جيرمونسكي مع (فان تيجم)، مع ملاحظة أن هذا الاختلاف جاء قبل أزمة الأدب المقارن التي أطلقها (رينيه ويلك) في النصف الثاني من القرن العشرين. لكن وجه الخلاف بين ما قدمه فيسيلوفسكي وجيرمونسكي من جهة، وما قدمه رينيه ويلك في أزمته من جهة ثانية، تمثل في أن الأولَين تناولا مسائل الأدب المقارن بما ينسجم وتصوراتهما عملية التطور التاريخي والأدبي، فابتعد أولهما عن ملامسة آراء تيجم كونه أقدم منه زمنياً، في حين اقترب الثاني (جيرمونسكي) في تناوله آراء تيجم اقتراباً أخذ طابع الاتفاق حيناً، والاختلاف حيناً آخر، والتعديل حيناً ثالثاً، والرفض ومرادفاته حيناً رابعاً.

ولعل صفحات هذا البحث تستطيع إيضاح القضايا المذكورة، بموضوعية وحيادية، اعتماداً على الاستقراء والاستنباط القائمين على جمع الأدلة النصية وتحليلها، سبيلاً لتسجيل قناعة في مجال الدرس الأدبي المقارن، الذي طال أمد الخلاف في قضاياه، بدءاً من التعريف والماهية، مروراً بالأدوات والوسائل، وانتهاءً بالمقاصد والأهداف.

فيكتور جيرمونسكي ومصادره الفلسفية والنقدية:

يعد الناقد، المنظر، المقارن فيكتور مكسيموفيش جيرمونسكي (1891–1971) مرسّخ أسس الأدب المقارن السوفييتي الروسي، فهو مؤسس النظرية النمطية (Typology) بأركانها العامة أو بأجزائها وأفكارها الدقيقة كافّة في الأدب المقارن، ولعل الحدث الأبرز الذي كان له أثر واضح في اتّجاهه صوب الأدب المقارن، رسالته لنيل شهادة الدكتوراه التي نشرها عام 1924 بعنوان "بايرون وبوشكين من تاريخ الملحمة الرومانسية" لكنّه لم يستطع في هذه الأطروحة التخلّص من مبادئ المدرسة الشكلانيّة، فاهتم بقضايا الشكل على حساب الجوانب الأخرى، المتّصلة بالمبدع وأحواله، والمتلقي ووسائله "فالعمل الأدبي كيان متكامل، يتصف بالذاتية والاستقلال عن وعي المبدع والمتلقّي معاً[1].

إنّ الكلام المدوّن أعلاه يجعل من جيرمونسكي ناقدا مختصا بهذا الفرع المعرفي الذي يتخطى حدود الآداب القومية. لهذا نرى أعماله اللاحقة في مصب الأدب المقارن أكثر نضجا ووضوحا. إذ بدا فيها أكثر التصاقا بجوهر الأدب المقارن، فخالف من تأثر بهم في بعض القضايا وأضاف إلى ما تركوه من مبادئ وآراء وعدل. فبدأ يتخلى عن

[1] - انظر: فيكتور جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، ترجمة وتقديم د. غسان مرتضى، سوريا، حمص، ص 5.

بعض مواقف الشكلانيين أولاً، ثم الماركسيين ثانيا، فيما يخص نظرته إلى الجانبين الشكلي (الفني) والاجتماعي، في أثناء اقترابه نقدياً من النصوص الأدبية الإبداعيّة:

إنَّ كتاب جيرمونسكي (غوته في الأدب الروسي) 1937 يشكّل بداية حقيقية لتبلّور شخصيّته المقارنية وتفرّدها من الزاويتين النظريّة والتطبيقيّة، وإن كان قد لامس، من قبلُ، الزاوية النظريّة في بحثه (علم الأدب المقارن وقضيّة المؤثّرات الأدبيّة). الذي أطلّ من خلاله على فهم ذي طابع معرفي موسوعي، ينهل من معارف عديدة، ومن اتّجاهات نقديّة وفلسفيّة ومنطقيّة واجتماعيّة وتاريخيّة، لا يمكن لأي باحث، إن أراد لبحثه الإحاطة، أن يتجاهلها. فباحث الأدب المقارن لا يستطيع أن يتخلّى عن نظرية الأدب وما تفرزه من قوانين خاصّة وعامّة، كما أنّه لا يستطيع الابتعاد كثيراً عن التاريخ الأدبي بوصفه دراسة تزامنية للأدب تتجاوز ترتيب الوقائع الأدبيّة زمنيّاً لاستيعاب البنى الفكريّة، سبيلاً للكشف عن القوانين الموضوعية التاريخية. وهو في النهاية لا يستطيع التخلّي عن النقد الأدبي وأدواته. فالناقد سواء أكان ناقداً عالميّاً أم مقارناً، أم قوميّاً، يجب أن ينطلق من ركائز النقد وأسسه وأدواته، علماً أنّ الدراسات المقارنة تؤمن لأية دراسة نقدية "نظرة عامة أكثر توازياً، ومنظراً أصح مما بيسره التحليل المعزول للأدب القومي الواحد، مهما كان غنيّاً في ذاته"[1]. وهذا ما فعله فيكتور جيرمونسكي في أعماله التي يمكن ان توزّع على ثلاث شرائح، عنيت الأولى بجوانب الإبداع الأدبي وقضاياه الفنيّة مثل (تشكيل الشّعر الغنائي) 1921 (القافية تاريخها ونظريتها) 1923. أمّا الثانية فكان للجو الأكاديمي الأثر البالغ في ظهورها، أعني بذلك اتّجاهه صوب علم الأدب المقارن، عندما كتب اطروحته السالفة الذكر. أمّا الثالثة، فكانت من نصيب الأدب الفلكلوري الشعبي، الذي رسّخ ما كان يرمي إليه وينظر بعيون واثقة بلورت اتّجاهاً نقديّاً مقارنياً، يأخذ بأطراف الظاهرة الإبداعيّة كلّها. بحيث يغدو الأدب المقارن عنده مرتكزاً على أسس ثلاثة، النظريّة، التاريخ، النقد، التي تشكّل بمجملها علم الأدب. فلو مثّلنا لعلم الأدب بدائرة، مقسّمة إلى ثلاثة أقسام، يحمل الأوّل اسم تاريخ الأدب، والثّاني نظريته، والثّالث نقده؛ لكان موقع الأدب المقارن، كما أراده جيرمونسكي في دائرة صغيرة ضمن الدائرة الكبيرة تشترك وإياها في مركز واحد كما في الشكل الآتي:

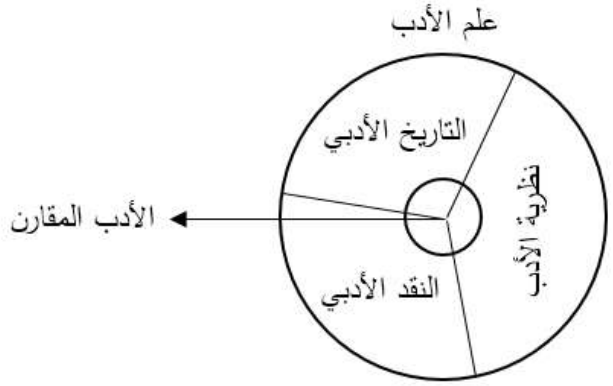

إنَّ الأمانة العلميّة تستدعي الإشارة إلى أنَّ جيرمونسكي، في أغلب ما ذهب إليه، استند إلى مقولات أستاذه الذي لا ينكر أثره العام فيه وفي أعماله "ألكسندر فيسيلوفسكي" صاحب كتاب النظم التأريخي [2] الذي يعدّ الركن الأساس في نشأة المنظور الروسي للأدب المقارن ومنطلقه، إلى جانب اهتمام صاحبه (فيسلوفيسكي) الواسع في الآداب الفلكلوريّة، وتفسير نشوئها وانتقالها من أمّة إلى أخرى، بعيداً في كثير من الأحيان عن العلاقات التاريخيّة السببيّة، وقريباً من

[1] - ينظر اس. اس براور، الدراسات الأدبية المقارنة ت. عارف حديفة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1986، ص22.
[2] - انظر: كتاب النظم التأريخي، أ. فيسيلوفسكي، لينغراد، 1940.

طرائق التفكير المشتركة العامّة بين الشعوب المتباعدة زمانياً ومكانيّاً، والمتقاربة نفسيّاً وإنسانيّاً، فالأطوار المتشابهة اجتماعيّاً يرافقها بالضرورة تشابه أدبيّ وثقافيّ، يسمح بإجراء مقارنات بين آداب لم يكن بينها علاقات تأثّر وتأثير.

إنَّ التّشابه بين المبدأ العامّ، القائم على التشابه بين الآداب، الذي وضع معالمه فيسيلوفسكي، متأثراً بعلماء الإثنوغرافية الكلاسيكيّة بشكل عام، و(تايلور) الإنكليزي المتخصّص في ثقافات المجتمعات البدائيّة بشكل خاصّ، قد لاقى قبولاً مبدئيّاً من (جيرمونسكي) حين قال واصفاً كتاب فيسيلوفسكي (النظم التأريخيّ): "ينطلق فيسيلوفسكي في كتابه (النظم التأريخي) الذي يحيط بتطوّر الآداب كافة من مقولة وحدة عمليّة تطوّر آداب العالم وقانونيتها ضمن الشروط الاجتماعيّة، وقد أتاح له هذا التصوّر العام لعمليّة التطوّر الأدبي –علماً أنَّ هذا التصوّر لم يكن متبلوراً أو مدعماً بالبراهين والأدلّة الكافية قبله– أن يعقد مقارنات واسعة بين ظواهر أدبيّة لم تظهر في فترة زمنية واحدة، ولم يكن بينها علاقات تأثّر وتأثير، لكنّها موجودة في أطوار متشابهة من أطوار التطوّر الاجتماعيّ"[1].

إنَّ كلام جيرمونسكي يحمل فكرتين أساستين إضافة إلى معناه الواضح؛ الأولى توحي بعدم رفض جيرمونسكي المبدأ العام الذي طرحه فيسيلوفسكي، والثانية اعتراف جيرمونسكي بريادة فيسيلوفسكي في الدعوة إلى بلورة هذا المبدأ، وسوق الأدلّة التي تؤكّد في أعماله الوقوف على التأثيرات المتبادلة القادمة عن طريق الاطّلاع والاحتكاك الأدبيين، المشروطين تاريخياً واجتماعيّاً، يقول جيرمونسكي بهذا الصدد "يقول (فيسيلوفسكي) قول حقّ: لا يتطلّب التأثير مكاناً فارغاً عند المتلقّي، بل تيّاراً ملاقياً، أو اتّجاهاً فكريّاً مشابهاً أو أشكالاً لفنتازيا مماثلة، ومن ثمَّ فإنَّ نظرية التأثير تقتضي –وفق هذه الحالة– وجود نظرية الاستقبال وبالعكس"[2].

إنَّ هذه النظرة الثاقبة التي ينطلق منها فيسيلوفسكي في فهمه قضية التأثير تساوي بين طرفي العملية التأثيريّة أي بين المؤثّر والمتأثّر إلى حدٍّ كبير، وما قوله لفظة و(بالعكس) إلا دليل واضح على جوهر ما يرمي إليه قائلها. لأنَّ قوله التلقي الإبداعي يفترض بداهة وجود نزعة مماثلة لدى المتلقّي، تفرضها تجارب حياتيّة ووقائع اجتماعيّة، تجعل من عملية التأثير عملية نابعة من عمق الأعمال الأدبيّة المتشابهة، لا من العلاقات الخارجية التي تفرضها أشكال التعبير، أو الوثائق التاريخيّة التي تقرّها النصوص غير الأدبيّة، أي كتب التاريخ والسير واعترافات الكتاب وما شابه ذلك من مصادر ومراجع؛ فهي ليست إلّا عتبة أولى من عتبات الولوج إلى جوهر عملية التأثّر والتأثير. فتاريخ الآداب كما يفهمه (فيسيلوفسكي) في أعماله التي تجاوزت مئتين وثمانين كتاباً وبحثاً، يتجاوز بكثيرٍ ترتيب الوقائع الأدبية ترتيباً زمنياً، إنّه مخبر تاريخي فكريّ وفني نقدي يستوعب الأفكار الثقافية، والضروب الفنّيّة، والمعالم التاريخية الاجتماعية لاكتشاف القوانين الموضوعية، العامّة والخاصّة، التي تحكم سيرورة الأدب وصيرورته. هذا يعني بشكل واضح أنَّ التاريخ الأدبي لا ينفصل معرفيّاً عن النظرية الأدبية والنقد الأدبي، وبالتالي إنّ هذه الأقطاب الثلاثة لا بدّ أن تتواشج وتستدعي بعضها إجرائياً.

إنَّ فيسيلوفسكي وجيرمونسكي بعده في ربطهما مسائل التأثّر والتأثير من جهة، والتشابه والاختلاف من جهة أخرى بتشابهات البواعث الاجتماعيّة – التاريخية العامّة، يكونان قد وسّعا من دائرة فهم التأثّر والتأثير واتجها به عمقاً، بعيداً عن قضايا مسك الدفاتر والاستيراد الأدبيّ من جهة واستطاعا استقطاب الظواهر الفكريّة والأدبيّة المتماثلة بين آداب الشّعوب، وجعلها مادّة للأدب المقارن تفوق قيمتها قيمة ما تقدّمه الدّراسات التّاريخيّة، التي تنطلق أساساً من قضايا فوق نصيّة وتجعلها شرطاً واجباً، فما من أدب واحد، يمكن استيعابه وفهم نشأته وصيرورته استيعاباً وافياً إلّا من

[1] - جيرمونسكي، علم الأدب شرق وغرب، ترجمة وتقديم د. غسان مرتضى، ص13.
[2] - نفسه، ص16.

خلال علاقته بالأحداث الأخرى، وبالآداب الأخرى. فالتماثل الاجتماعي والحاجة إلى الاستيراد الأيديولوجي [1] المرتبط بالتحويل الاجتماعي موجبة، ولا تقل أهمية عن الأسباب التاريخية، وتستدعي الوقوف عندها والتأمّل بها، سبيلاً لتحديد نقاط التأثّر والتأثير، وفي حال انعدام وجودها فإنَّ البحث المقارن يمضي في سبيله لكشف أوجه التلاقي والاختلاف.

إنَّ التّوافق بين فيسيلوفسكي وجيرمونسكي في المبادئ العامّة والمنطلقات النظريّة، لا تجعل من الثاني صورة مكبّرة عن الأول، لأنّنا نلاحظ في مواضع عديدة محاولة انفلات جيرمونسكي من حدود ما رسمه أستاذه. ففي مسألة الموضوعات التي عزاها فيسيلوفسكي إلى مسألة التأثّر والتأثير تاركاً المعاني البسيطة لتتولّد ذاتيّاً، ولا يوجد شرح وافٍ لهذه المسألة أفضل مما قاله جيرمونسكي ذاته عندما سلّم بالمبدأ العامّ قائلاً "لكنّ حقيقة الأمر غير ذلك، إذ إنَّ لتطوّر الموضوع القصصيّ وتعاقب المعاني فيه منطقاً داخليّاً محكوماً بمنطق الواقع الموضوعي والخصائص التاريخيّة للوعي البشريّ الذي يعكس هذا الواقع، لذا فإنَّ حركة الموضوع من وضعيّة محدّدة إلى وضعيّة لاحقة، في ظروف تاريخيّة ملموسة، هي حركة محكومة إلى حدٍّ ما بالخصائص المعيشة والاجتماعيّة والنفسيّة للمجتمع المنتج لهذا الموضوع، ومثال ذلك أنَّ المعاني المركّبة في أساليب الشعر الغنائي لا تظهر مصادفة، بل تتجمّع حول محور لشكلٍ معيّن من أشكال المعاناة العاطفيّة التي تلهم بدورها الشّاعر أو الكاتب بسلسلة من الصور العاطفيّة المرتبطة فيما بينها بوحدتها الفكريّة وتطابق الأوضاع المعيشية والتّصوّرات الاجتماعيّة المنبثقة عنها. لم يأخذ (فيسيلوفسكي) هذه المسألة بعين الاعتبار على نحوٍ كافٍ حتّى يتاح له توسيع الحقائق –في أحيان كثيرة– حول ما يسمّى بالتولّد الذاتيّ الذي يمكن أن يتجاوز المعاني أحادية الحدّ التي كان قد تحدّث عنها [2]. إذن؛ إنّ عملية التولّد الذاتي يمكن أن تتجاوز المعاني لتصل إلى الموضوعات، علماً أنَّ جيرمونسكي في نهاية المقبوس المدوّن أعلاه يلتمس (لفيسيلوفسكي) عذراً تفسيرياً لما ذهب إليه من باب إدراكه أنَّ هذا الأخير يريد توسيع دائرة الحقائق حول ما يسمّى بالتولد الذاتي للمعاني. ولكنّه في الوقت ذاته يلمّح باستخدامه لفظة (يمكن) إلى أن الأمر أبعد مما توقّف عنده أستاذه ليصل إلى ولادة الموضوعات ولادة ذاتيّة، فقد تدرج في طرح بعض الآراء التي تدعم موقفه المختلف هذا عندما طرح نسبية إمكانية هذه الولادة فأعادها إلى الخصوصيات القومية ليتعمّق أكثر، ويذهب إلى أبعد من ذلك، عندما ربط بين هذه الموضوعات وظروف الحياة الاجتماعية، وحالة المغنّي الاجتماعية القَبْلِية (فيما يتعلّق بالأغاني البطولية) وطرائق النظم وغير ذلك من مقوّمات يمكن أن تتجاوز إمكانية ولادة المعاني إلى إمكانية ولادة الموضوعات لهذا يقول: "وبغض النظر عن مصداقية نظرات (فيسيلوفسكي) من حيث المبدأ لا بدَّ لنا من بعض التحفّظ، فالمشابهة بين نتاجات الأدب الشعبي لا يقف عند حدود معانٍ معدودة، إنّه يتّسم بعمق أكبر وشموليّة أعم، بل إنّه يحيط بمكوّنات هذا النوع الشعري كلّها، بما فيها محتواه الفكري، ومركب الموضوعات الشعريّة البطولية التي تؤله المآثر الحربية للأبطال الشعبيين، والصور والأشكال الفنيّة، وأسلوب الشعر البطولي المتميّز بصيغه التقليدية الخاصّة المعتمدة على التكرار والنعوت التزينية والبنى الفنية الشكلية، وفي النهاية ظروف الحياة التي انبعثت منها الأغاني البطولية الشعبيّة، وطريقة نظمها، وأداؤها مغناة شفهياً، وحالة المغني الاجتماعية القبلية" [3]، ويضاف إلى ذلك التدخّل الحرّ لناسخ الأشعار البطولية، الذي يتدخّل بشكلٍ جزئي أو كلّي بمفردات النصّ الشكليّة والمضمونية، لدرجة إلغاء النص واستبداله بنصٍ مغايرٍ شكلاً ومضموناً، لتتحقق إمكانية ولادة موضوعات جديدة، تتساوى وإمكانية ولادة معانٍ جددة، وإن كانت نسبة تحقق الإمكانية الثانية أكثر من إمكانية

[1] - ينظر المرعي، د. فؤاد، في نظرية الأدب المقارن، المعرفة، دمشق، 1986، السنة 25، العدد 295، ص167-170.
[2] - جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، تر: د. غسان مرتضى، ص15.
[3] - جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، تر: د. غسان مرتضى، ص18.

تحقق الأولى، نظراً لكيميائيّتها الأكثر تعقيداً. يقول د. ليخاتشوف واصفاً عمل الناسخ: "إنّه يتدخّل تلخيصاً أو شرحاً أو إنهاءً للأصل، أو إعادة معالجةٍ أسلوبيّة عادةً وفكرية أحياناً"[1].

إذن إنَّ مكوّنات النوع الشعري الفكرية وما يحيط بها من ظروف حياتية تؤدّي إلى انبعاث هذه الموضوعات انبعاثاً محكوماً بمنطقه الداخلي الخاص "فكثيراً ما يكون لتطوّر الموضوع الحكائي وتتابع المعاني فيه منطقه الداخلي الخاصّ الذي يعكس علاقات الواقع الموضوعي وقانونيته والذي يعبّر عن خصوصيات وعي المبدع الذي يعكس هذا الواقع الموضوعي لذا فإنَّ حركة الموضوع الداخلية تكون في ظروف محددة – مقدرة سلفاً، تبعاً لخصائص الحياة الاجتماعية والمعيشية وطبيعة الناص السيكلوجية وعقائدهم الدينية الخاصّة" [2]، أمّا النقطة الجوهرية التي تميّز بها جيرمونسكي عن أستاذه فيسيلوفسكي فهي مسألة الاختلاف، إذ لا نجد تلميحاً أو تصريحاً من فيسيلوفسكي يشير إلى هذه القضية، حتّى في أثناء حديثه عن التعبير الفني بين الآداب وتشابهه، الذي أدرجه تحت قانونه المقارني العام القائل إنّ وحدة عملية التطوّر الاجتماعي التاريخي للبشريّة هي المقدّمة الأساسية لعلم الأدب المقارن.

إنَّ جيرمونسكي هنا لا يلتمس لأستاذه عذراً لثلاثة أسباب في كلّ منهما بذرة حقيقيّة، الأوّل هو أنَّ فيسيلوفسكي في دراساته الآداب الفلكلوريّة ما زال واقعاً تحت تأثير علماء الأثنوغرافيا الكلاسيكيّة من جهة، وتأثير ما قدّمه المفكرون الألمان فيما يخصّ قضيّة (الاقتباس) وانتقال الآداب الشفهيّة من أمّة إلى أخرى، إمّا نتيجة حاجات اجتماعيّة وثقافيّة وأدبيّة وأخلاقيّة معينة، تؤدي إلى هجرة النصوص من بلد إلى آخر، اقتباساً أو تأثّراً.

وإمّا نتيجة الاحتكاك المباشر، فقضية الاقتباس عند (بنفيه) بدت معادلاً موضوعيّاً لمسألة التأثّر والتأثير في محاولتها تتبّع وسائل الاحتكاك الأدبيّ، بينما بدت عند فيسيلوفسكي بديلاً منهجياً وفنيّاً للمسألة ذاتها، لكنّه استطاع إخراجها من الدائرة المغلقة إلى دوائر مفتوحة من خلال استخدامه مبدأ النسبيّة في الوقوف على مرتكزاتها الأخرى المتصلة بالمجتمع وأحواله[3].

أمّا الثاني فيشير إلى أنَّ جيرمونسكي يقدّر أنَّ أستاذه كان يدرك ضمناً أنَّ وجود التشابه يفترض وجوباً وجود الاختلاف، وأنّه ينطلق من رؤية استراتيجية المقارنة، اتّفاقاً مع نظرته الشاملة الساعية إلى ترسيخ مبدأ وحدة الجذر الإنسانيّ، الذي تنبعث منه مفردات النشاطات الإنسانية، ومنها الأدب، لتلتقي عبر سيرورتها مرة ثانية في مصبٍّ إنسانيّ عام، يجمع الإنسان وأخيه على مائدةٍ إنسانيّة، مفرداتها القطب الإيجابيّ من ثنائيات العلاقات البشرية.

أمّا الثالث فهو اندفاع (جيرمونسكي) بعوامل ذاتيّة، تبدّت في حرصه على إبراز تفرّده وريادته في إضافة ركن أساس من أركان المقارنة الروسيّة، بدليل أنَّه في أكثر من موضع نظري وتطبيقي ركّز على مسألة الاختلاف في محاضراته وبحوثه التي نشرها في منتصف القرن العشرين، ففي بحثه "التيّارات الأدبيّة بوصفها ظاهرة عالميّة" عام 1967 يعلن بوضوح "أنَّ وجود التّشابهات النمطيّة في تاريخ الآداب العالميّة هو أكثر بكثير مما اعتدنا أن نظنّ. وفوق ذلك فهي مقدّمات لعمليّات التبادل بين الآداب. ويترافق وجود هذه التّشابهات عادة مع وجود اختلافات جوهريّة تستدعيها الخصائص المحليّة للتطوّر التاريخي، المبنيّة على النوازع القوميّة – التاريخيّة الخاصّة، وتتيح دراسة التشابهات والتّباينات دراسة مقارنة الوقوف على قوانين التّطوّر الأدبيّ في سياق شروطه الاجتماعيّة، كما تتيح، في الوقت نفسه، الوقوف على خصائص الآداب القوميّة التي تُعدّ مادّة الأدب المقارن أصلاً"[4].

---

[1] - د. س. ليخاتشوف، علم النص، لينغراد، دار العلم، 1962، ص146. (بالروسية).
[2] - جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، ص166.
[3] - انظر الأدب المقارن، د. يعقوب البيطار، د. عيد محمود، ص176.
[4] - جرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، تر: د. غسان مرتضى، ص92.

إنَّ الأفكار التي طرحها جيرمونسكي في مسألة الاختلافات وأهميّة دراستها بفعل الخصوصيّات الاجتماعيّة والفكريّة التي تمتلكها القوميّات المختلفة، تأخذ عنده أشكالاً عديدة وصوراً متفاوتة، فقد تكون جزئيّة تخصّ بعض المعاني أو الشّخصيّات، وقد تكون كليّة تأخذ شكلاً معاكساً، أو خطاباً أدبيّاً يتّفق وعواطف المتلقّي "فالفردوس المفقود للإنكليزي (ملتون)، تتحوّل على الأرضيّة الألمانيّة إلى (المخلص) لـ(كلوبتشوك) وتستبدل الصّورة المركزيّة الدراماتيكيّة لشيطان (ملتون) بأنموذج المسيح العاطفي البطل المسالم الذي تتجلّى عظمته في حلمه وصبره تحت ثقل العذابات التي لا مناصّ منها، ويتحوّل التّطوّر الطبيعيّ الهادئ للموضوع إلى تناوب للوحدات العاطفيّة المعدّة لمخاطبة عواطف المتلقي المشحون بالقلق"[1].

إنَّ تركيز جيرمونسكي على قضايا الاختلاف يتيح الاطلاع على خصوصيّة المبدع وتفرّده؛ سواء أكان هذا التفرّد داخل أدب قوميته، أم خارجها. وهذه مسألة تتفق وماهية الإبداع، الذي مهما انغمس في الأحوال المحيطة، أو استند إلى تجارب فارطة، يبقى ذا خصوصيّة فريدة، لا يدركها إلّا المبدع ذاته مهما حاول الناقد تلمسها أو الاقتراب منها... فسّر العلاقة بين المبدع ونصوصه شبيهة بسر العلاقة بين الطفل ولعبته، إذ لا يستطيع النقّاد وعلماء الاجتماع إدراكها مهما علت مهارتهم، وتنوّعت أدواتهم، وتعدّدت وسائلهم.

إنَّ حرص (جيرمونسكي) على دفع مسألة الاختلاف بين الآداب إلى واجهة الدرس المقارن بدأه (فيسيلوفسكي) متأثراً بالمنظرين الألمان عندما ركّز على قضية التشابه؛ ردّ منطقي ومعرفي لما حاول تكريسه أصحاب العلاقات التاريخية السببية في فرنسا تحديداً. لكن –بغض الطرف– عن الأسباب والبواعث يمكن القول: إنَّ ما صنعه (جيرمونسكي) في هذا المجال غدا نظرية متكاملة الأركان، تلقّف بعض جوانبها نقاد ومنظرون أوروبيون وأمريكيون[2].

فـ(رينيه ويلك) على سبيل المثال في إدانته شروع دراسات العلاقات الأدبية والتأثيرات ينوّه إلى التشابهات والاختلافات، لكنّه يقدّم النقد على المقدّمة الاجتماعيّة التي طرحها جيرمونسكي، علماً أنّه يضع هذه المقدّمة من ضمن ما أسماه (الحقائق الأخرى) التي تفسّر أسباب ظهور الأعمال الأدبية[3].

أمّا (اس. براور) فيفرز نوعين للتشابه، أوّلهما "استقصاء الصور ومركبات الصور المتماثلة تماثلاً لافتاً للنظر، والتي تظهر في أعمال شعراء لا صلة فيما بينهم مثل صورة الشمس عند (بليك) و(نرفال) [وتفسير ذلك هو تركيب الخيال الإنساني... والمنطقة الأخرى لدراسات التشابه... هي التي تتولّى دراسة موضوع معيّن في جنس أدبي ما في العالم كلّه. مثل (إيوس) * بحث في موضوع لقاء العشاق وافتراقهم عند الفجر في الشعر..... ويوجد هنا تفاعل بين ثلاثة عوامل رئيسة تعمل في صالح التشابهات النموذجية. أوّلها العامل الاجتماعي (قد يتوصّل مجتمعان إلى مرحلة متماثلة من التطوّر، أو يجدان أنّهما يواجهان مشكلات متماثلة. وثانيها العامل الأدبي (قد ينمو في إحدى مراحل تطوّرهما جنس أدبي معيّن من تلقاء ذاته ويؤدّي إلى تطوّر متماثل، قد تقويه وقد لا تقويه صلة مباشرة بنماذج أجنبية، وثالثها العامل النفسي (للعقل الإنساني أشكال استجابة مشتركة إلى التجربة المشتركة، وقد يكون لمؤلّفين اثنين سجايا متماثلة"[4]. باختصار شديد نقول: يمثّل هذا الكلام صياغة موفقة تجمل ما ذهب إليه (جيرمونسكي) في رسم معالم هرمه النقدي، الذي يحاول تفسير نشوء الظواهر الأدبيّة في البلدان المتباعدة زمنياً ومكانياً، ولا توجد فيما بينها صلات فعلية.

---

[1] - نفسه، ص265.

[2] - انظر: ج. ن. باسبيلوف، مراحل تطوّر الآداب الأوروبية، دار الآداب، موسكو، ط1، 1988، ص10 (بالروسية).

[3] - انظر: رينيه ويلك، مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، الأدب المقارن اليوم، 1987، ص318 وما يليها.

[*] إيوس (Eos) هي إلهة الفجر عند الإغريق.

[4] - اس. اس براور، الدراسات الأدبية المقارنة – مدخل، ت: عارف حديفة، ص80-81.

إنَّ (جيرمونسكي)، وإن كان في مناقشة آراء فيسيلوفسكي قد بدا من حيث المبدأ العام إيجابيّاً، لم يتأخّر لحظة واحدة عن إطلاق بعض الأحكام والألفاظ التي تحمل نقداً موضوعيّاً، أراد من خلالها تصحيح مسار الدرس الأدبي المقارن من وجهة نظره. فهو في الوقت الذي يصف فهم فيسيلوفسكي للمنهج المقارن بالشموليّة والموسوعيّة الاستثنائية، ويعده من السباقين في إخراج دراسة الأدب الروسي من العزلة القومية، ووضعها في مراكز المخالطة الثقافية والأدبيّة العالمية، ينعته في مواضيع كثيرة بالتجريبية والوضعية والبدائيّة وعدم الاكتمال [1] ولعلنا نورد مقبوساً يؤكّد ما أشير إليه من استنتاجات بقلم "جيرمونسكي" سطرها في بحثه "أ. ن. فيسيلوفسكي وعلم الأدب المقارن" [*] يقول: "لم يستطع (فيسيلوفسكي) إذاً أن يبرهن على قانونية عملية التطوّر الأدبيّ في مراحل تطوّه التاريخية، ويبنى حتّى النهاية البناء الضخم الذي كان يتوخاه من تاريخ الأدب بوصفه علماً. أمّا أسباب هذا الإخفاق فليست مصادفة، بل هي أسباب مرتبطة بالمقدّمات المنهجية لأعمال (فيسيلوفسكي) العلمية كلها، فهو عالم تربّى على مبادئ النظرية الوضعية والتجريبية، لذا بقيت محاولاته الكشف عن القوانين العامّة المتّصلة بالتاريخ الاجتماعي وتاريخ تطوّر الآداب غير مستندة إلى أسس فلسفيّة وجماليّة نظرية، واكتفى بالاعتماد على الاستقراء التاريخي وتحليل الوقائع تحليلاً ميدانيّاً ملموساً، الواقعة تلو الأخرى. كما أسهم في إخفاقه موقفه السلبي من كلّ ما يعتقد أنّه مواقف فلسفيّة "انتهازية" أو "قبْلية" في التعامل مع نظرية التطور التاريخي ونظرية الإبداع الفني" [2]. إنَّ هذه الملامسة النقدية التي يسوّقها (جيرمونسكي) لأعمال (فيسيلوفسكي) تحمل في مضمونها نقداً يبدو في ظاهره سلبيّاً، لكنّها تلتمس في عمقها المعرفيّ أعذاراً تجعل من فيسيلوفسكي ناقداً منسجماً مع مقدّماته النظريّة للوقائع التي يدرسها الواحدة تلو الأخرى، إضافةً إلى موقفه السلبيّ من كلّ من يتعامل مع نظرية التطوّر الاجتماعي ونظريّة الإبداع الفنّيّ تعاملاً انتهازيّاً أو قبْليّاً.

إنَّ هذين السببين جعلا من عمل (فيسيلوفسكي) (النظم التأريخي) عملاً غير مكتمل من وجهة نظر جيرمونسكي، علماً أنّه قد ركن إلى مصداقيّته من حيث المبدأ أو المنطق.

إنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل استطاع جيرمونسكي الانفلات من قيد ما رسمه فيسيلوفسكي في كتابه النظم التأريخي وأبحاثه التي اهتمّت بالشعر الشعبي البطولي؟ الجواب بالنفي وارد وصحيح، لكنّه نسبيّ، لأنّه أي جيرمونسكي وافق وعدّل ووازى وأضاف إلى ما أسس له أستاذه فيسيلوفسكي، الذي بدا فيما ذهب إليه بخصوص النظر إلى آداب الشعوب، منسجماً واهتماماته الأساسيّة الساعية إلى الكشف عن القرابة الجينية والإنسانية التي تجمع الشعوب كافّة، والتي تظهر لأسباب متنوّعة في النشاط الفكري والفني لتلك الشعوب، لهذا "إنَّ المقارنة أي إظهار التشابه والاختلاف بين الظواهر الإبداعية وتفسيرها تاريخياً – لا تعد منهجاً علمياً خاصّاً بالمعنى الدقيق لكلمة منهج. لأنَّ الفرق بين المناهج هو فرق في مبادئ البحث العلمي النظرية، وفرق في الرؤى الكونية التي تنبثق عنها هذه المبادئ المقارنة إذاً هي مجرّد وسيلة نافعة من وسائل البحث العلمي في العلوم الإنسانية، وهي لا تنزع عن الظاهرة المدروسة خصوصيتها الفردية أو الاجتماعية أو القومية، بل –على العكس– تفسح المجال واسعاً لدراستها بقدر أكبر من الدقة على أساس التشابه والاختلاف مع الظواهر المقارنة معها"[3].

إنَّ جيرمونسكي –كما هو واضح– لا يجعل من المقارنة منهجاً، لكنّه في الوقت ذاته يعدها وسيلة نافعة وعميقة لوضع اليد على التقاربات والاختلافات بين آداب الشعوب، إلّا أنّ هذه الوسيلة عنده تأخذ أشكالاً أو أنواعاً متعددة مع

[1] - انظر: جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، لينغراد، دار العلم، 1979، ص207-219-245-246. (بالروسية).
[*] البحث مقدّمة كتبها جيرمونسكي تعدياً لكتاب فيسيلوفسكي النظم التأريخي".
[2] - ف. جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، ص234.
[3] - نفسه، ص163-164.

ملاحظة أنّ انفصالها لا يعني إمكانية تداخلها. لكن الخلط فيما بينها يؤدّي إلى أخطاء فادحة. إذن المقارنة عنده مقارنات هي:

"1- المقارنة التاريخية – التوليدية، التي تبحث في التشابه بين الظواهر بوصفه نتاجاً لقرابتها في المنشأ، ثمّ في اختلافاتها اللاحقة بالظروف التاريخية.

2- المقارنة التاريخية – النمطية (التيبولوجية) التي تفسّر التشابه بين الظواهر غير المترابطة في المنشأ على أنّه تشابه ناجم عن تشابه ظروف التطوّر الاجتماعي.

3- المقارنة التي تحدد التيارات الثقافية العالمية (التأثير – الاقتباس) المشروطة بالتقارب والمعاشرة بين الشعوب، والتقارب في مقدّمات تطوّرها الاجتماعي"[1].

إنَّ ما يرسمه (جيرمونسكي) هنا لأنواع المقارنة بخطوطها العريضة، يفوق معرفياً ومنهجياً ما رسمته (ماري غيثر) في توصيفها الدراسات المقارنة بين الفنون والأدب، عندما قالت: "يبدو أنّ هناك ثلاثة أنواع رئيسة للدراسات المقارنة بين الفنون والأدب هي: العلاقة بين الشكل والمحتوى، والتأثير، والتركيب" [2]. إلّا أنّ ما يشفع لماري غيثر تقصيرها عمّا ذهب إليه جيرمونسكي هو محاولتها الردّ على أحد بنود الاتّجاه الأمريكي القاضي بمقارنة الفنون والعلوم الاجتماعيّة بالأدب[3].

وأخيراً، وليس آخراً، فإنَّ (جيرمونسكي) يتّفق اتفاقاً شبه تامّ مع ما دعا إليه (فيسيلوفسكي) في أثناء دراسة النتاجات الإبداعية الفلكلورية وتشابهها. علماً أنَّ هذه التشابهات لا تصل إلى حدّ التطابق، ولا تعني –في حال توفر الشروط التاريخية– انعدام التمايزات والاختلافات، المسؤولة عن إبراز الخصوصيات الإبداعية للمبدعين أوّلاً، والتمايزات التاريخية –الاجتماعية التي تقف وراء تلك الخصوصيات. إنّه يتّفق وفيسلوفسكي في مسألة إدراج الدراسات الفلكلورية ضمن باقة الدراسات المقارنة، منطلقاً من مبدأ أنَّ الخصوصية الفردية ليست إلّا صدىً فنيّاً للخصوصيات الاجتماعية والقومية. فالمبدع ابن بيئته، وفي هذا الطرح يكون قد تجاوز ما ذهب إليه أصحاب النوع الثالث من المقارنات القائمة على تحديد التبادلات الثقافية العالمية (التأثير – الاقتباس) [4]، ويكون قد استكمل ما بدأه أستاذه (فيسيلوفسكي) اتّفاقاً في المبدأ، وتعديلاً في بعض الجزئيات والتفاصيل، وإضافة عندما جعل دراسة الاختلافات بين الآداب لا تقلّ أهميّة عن دراسة التشابهات، ليتمكّن في النهاية من رسم صورة متوازنة وعميقة للدرس الأدبي المقارن، بوصفه إجراءً علميّاً للكشف عن أسباب نشوء الأدب وتطوّره. فمادة الأدب المقارن هي الوقوف على خصائص الآداب القوميّة.

خاتمة:

إنَّ عصارة ما جاء في صفحات هذا البحث من عرض وتحليل ومناقشة، تشير إلى أنَّ فيكتور جيرمونسكي، بوصفه قامة نقدية ومقارنية، استطاع، مستفيداً من مصادر تنظيرية وتطبيقية، ترسيخ اتّجاه نقدي مقارني، يقوم على فروع معرفيّة ثلاثة هي: النظرية الأدبيّة والنقد الأدبي، والتاريخ الأدبي، ليأخذ كلّ فرع من هذه الفروع نصيب مشاركة ودعم للهرم المقارني الذي أقامه على مبدأ (فيسيلوفسكي) "وحدة قوانين التطوّر الاجتماعي سبب في تشابه آداب الشعوب"، مضيفاً قضايا الاختلاف، لتكون إضافة هذا الجانب علامة فارقة ميزت عمل جيرمونسكي عن عمل أستاذه،

[1] - فيكتور جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، تر: د. غسان مرتضى، ص164.

[2] - ن. ب. ستالكنيخت و هـ. فرنز، الأدب المقارن المنهج والمنظور، تر: د. فؤاد عبد المطلب، دار التوحيدي للنشر، سورية، حمص، 2007، ص202.

[3] - انظر: د. حسام الخطيب، الأدب المقارن، ج1، مطبعة الانماء، دمشق، 1982، ص170.

[4] - انظر: فان تيجم، الأدب المقارن، تر: حسام الحسامي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د. ت، ص 21-22.

وأعمال المنظرين المقارنين الآخرين الذين نحو بالأدب المقارن منحى وضعياً، يقوم على مبدأ العلاقات السببية التاريخية، التي تؤكّد وجود علاقات التأثّر والتأثير، بوصفها شرطاً لا بدَّ منه لإجراء المقارنة والشروع بها.

إنَّ (جيرمونسكي) يما قدّمه من تحفظات على بعض القضايا الجزئيّة التي طرحها أستاذه فيسيلوفسكي (المعاني، المواضع، التأثّر بمعالم الفلسفة الوضعية) كان يحاول وضع بعض النقاط المقارنية المغفلة التي لم يهتم بها أستاذه، نظراً لانشغاله –بشكل أساس– بقضايا تاريخ الأدب ونقده عموماً، والأدب الفلكلوري وتاريخه وأسباب تطوّره خصوصاً، بدليل أنّه لم يعاكسه في المبدأ العام لتلك القضايا الجزئيّة، بل حاول فتح إمكانيات لها. فقد فتح إمكانية ولادة الموضوعات بشكلٍ تلقائي في بلدان تفرض أحوالها التاريخية– الاجتماعية ذلك.

وأخيراً إنّ المقارنات عند جيرمونسكي موزّعة على ثلاثة أنواع: تاريخية، توليدية نمطية، ومقارنة مشروطة بالتقارب والمعاشرة بين الشعوب تحدد التبادلات الأدبية (التأثّر – والاقتباس)، لكنّها لا تلغي إمكانية أن تتقاطع مع النوعين الأولين، سبيلاً لإدراك مسائل التشابه ظروف التطوّر الاجتماعي. لهذا كلّه يمكن القول: إنّ ما تركه (جيرمونسكي) في مجال الدرس الأدبي المقارن بعمقه المعرفي، وإحاطته الواسعة، وشموليته في النظر إلى مكوّنات الظواهر الأدبيّة الإبداعيّة وأبعادها، يتفوّق على ما قدّمه المنظرون الآخرون داخل روسيا وخارجها من آراء ومبادئ تنظيرية، بدت في بعض جوانبها عاجزة عن تفسير مقنع لأسباب نشوء الأعمال الإبداعية شعرها ونثرها.

المصادر والمراجع

1 – أ. فيسيلوفسكي، كتاب النظم التأريخي، لينغراد، 1940. (بالروسية).

2 – اس. اس براور، الدراسات الأدبية المقارنة ت. عارف حديفة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1986.

3 – ج. ن. باسبيلوف، مراحل تطوّر الآداب الأوروبية، دار الآداب، موسكو، ط1، 1988. (بالروسية).

4 – جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، لينغراد، دار العلم، 1979. (بالروسية)

5 – د. حسام الخطيب، الأدب المقارن، ج1، مطبعة الانماء، دمشق، 1982.

6 – د. س. ليخاتشوف، علم النص، لينغراد، دار العلم، 1962. (بالروسية).

7 – رينيه ويلك، مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، الأدب المقارن اليوم، 1987.

8 – فيكتور جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، ترجمة وتقديم د. غسان مرتضى، سوريا، حمص، 2000.

9 – المرعي، د. فؤاد، في نظرية الأدب المقارن، المعرفة، دمشق، السنة 25، العدد 295، 1986.

10 ـ ن. ب. ستالكنيخت و. هـ. فرنز، الأدب المقارن المنهج والمنظور، تر: د. فؤاد عبد المطلب، دار التوحيدي للنشر، سورية، حمص، 2007.

11 ـ د. يعقوب البيطار، د. عيد محمود، الأدب المقارن، منشورات جامعة تشرين، سورية، اللاذقية، 2009–2010.